

## للمؤدب والتاريخ

## مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للاستاذ محمد سعيد العريان

- ٣ -

—&gt;&gt;&gt;&lt;&lt;&lt;—

## الرافعي في الوظيفة

في أبريل سنة ١٨٩٩ عيّن الرافعي كاتباً بمحكمة طرخا الشرعية، بمرتب شهري أربعة جنيهات، وأعانه على الظفر بهذه الوظيفة ما كان لأبيه وأسرته من جاه في المحاكم الشرعية؛ وما كان الرافعي ليجهل جاه أبيه وأسرته في هذه المحاكم، وما كان منكوراً لديه أن لهم يداً على كل قاض في القضاء الشرعي؛ فنشأ بذلك نشأة الدلال في وظيفته، لا يراها إلا ضريبة على الحكومة تؤديها إليه عميل أو لم يعمل، لمكانة أسرته من النفوذ والرأي، ولمسكاته هو أيضاً... ألم يكن يرشح نفسه ليكون أديب هذه الأمة؟ هكذا كان يرى نفسه من أول يوم، وظل كذلك يرى نفسه لآخر يوم...

وكانت إقامته بطنطا في هذه الحقبة؛ فنها مقدها وإليها مراجعته في كل يوم، يتأبط حقبة فيها غداؤه وفيها كتابه، وما كان أحد يستطيع أن يلقته إلى ضرورة التذكير إن جاء في الضحى، أو يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله.

لم يكن يرى الوظيفة إلا شيئاً يعينه على العيش، ليفرغ إلى نفسه ويُعبدّها لآلهيات له، فما انقطع عن المطالعة والدرس يوماً واحداً، وما كان أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته.

وقضى الرافعي في طرخا زمناً ما، ثم نقل إلى محكمة إيتاي البارود الشرعية، ثم إلى طنطا؛ وفي طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنين، لأنه رأى المجال في المحاكم الأهلية أوسع وأرحب، والعمل فيها أيسر جهداً وأكثر مالاً وأملاً؛ وظل في محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير.

وحياة الرافعي في طرخا وإيتاي البارود وطنطا لا تخلو من

طرائف، وتاريخه في الوظيفة حافل بالصور والشاهد التي كان لها أثرها من بعد في حياته الأدبية؛ ففي طرخا عرف الكاظمي شاعر العراق الكبير واتصل به وانمقتت بينهما أوامر الود على ماسياتي تفصيله؛ وفي إيتاي البارود تفتحت زهرة شبابه للحب وتمطشت نفسه إلى لدائه، وعلى (جسر كفر الزيات) فيما بين إيتاي البارود وطنطا مسته شعلة الحب المقدسة فكشفت عن عينيه الغطاء ليري ويحس ويشعر ويكون (شاعر الحب) من بعد؛ وفي طنطا كان نضجه وتماجه وإيناع ثمره.

وما أستطيع أن أصف بتفصيل واضح كيف كان يعيش الرافعي في تلك الأيام البعيدة، ولا كيف كانت صلته بالناس، ولا كيف تفاعلت حوادث أيامه باحسانات الشباب التي كانت تجيش بها نفسه الثائرة؛ ولكنني أعرف شيئاً واحداً هو كل ما بهمني إثباته في هذا البحث، هو أن روحاً رافعة كانت تطيف به في تلك الأيام فتنتزعه من وجوده الذي يعيش فيه لتخلق به في أجواء بعيدة وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بها ولم يعرفها فتوحى إليه الشعور بالقلق وألم الحرمان والاحساس بالوحدة، فلا يجد متنفساً ينفس به عن نفسه غير الشعر، وكان ذلك أول أمره في الأدب وإليه كان آخر ما يمتدأمله، فإذ كانت له أمنية إلا أن يكون شاعراً، شاعراً وحسب.

\*\*\*

لم يتعلم الرافعي الحب مما يسمع في مجالس الشبان، كما يتعلم أبناء هذا الجيل من أكاذيب التي التي يتداولونها في مجالسهم فيتعلمون الحب منها فتناً له قواعد مرسومة، بغاية محتومة... لكنه استمع إلى وحي الحب أول ما استمع في همسات روحه، وخلجات وجدانه، وخفقات قلبه، وانفعال أعصابه؛ إلى ما كان للحب في نفسه من صورة مشرقة شائقة مما قرأ من أخبار العذرين من شباب العرب؛ فأحس كأن شيئاً ينقصه، فراح يفتقده وشعر كأن إنساناً من وراء النيب تناديه وتهتف باسمه في خلوة نفسه وجلوة خاطره تقول: ها أنا ذى... فهام بالجنس ينشده شعره وينشد فيه مثاله الذي يدور عليه، وطار على وجهه كالفراشة الحائمة تقول لكل زهرة: أنت التي... فلا يستمع إلى جواب وإن الصوت البعيد لدائب يهتف في أذنيه: إنني هنا، إنني هنا يا حبيبي فاقصد إلى...

أو شيء مما يتصل بذلك ، فيكتب إليها بالرأى لتبلغه في منشور عام إلى كل المحاكم الأهلية .

وكان عليه المبدء من هذه الناحية في محكمة طنطا ، وقد طلب أكثر من مرة أن يحال إلى العاش ليتفرغ لفنه ، فما كان يمنعه من المضي في طلبه إلا دعر سائر موظفي المحكمة وإلحاحهم عليه أن يبق لللا يخلو موضعه .

وكان في صلته بموظفي المحكمة الذين يشركونه في عمله نبيلاً كريم الخلق إلى حد بعيد ، فكان يتطوع ليحمل عنهم تبعة كل خطأ يقع فيه واحد منهم مهما كان مدى الخطأ ونتيجته ؛ وقد رأيت مرة في صيف سنة ١٩٣٤ وقد لزمه مفتش من مفتشي الحفانية ثلاثة أشهر أو أكثر ، يستجوبه عن خطأ في تقدير الرسوم لأكثر من مائة وعشرين قضية ، بلغ النقص في الرسوم المتحصلة عنها بضعة وتسعين جنيهاً ؛ والرافعي يرد المفتش ويدافعه ويرى له الرأى ويصف له العلاج ، والمفتش دائب على الحضور كل يوم يبحث ويفتش ويستقصي وما ضاقت به أخلاق الرافعي ؛ على

حين لم يكن على الرافعي في هذه القضايا المائة والعشرين خطأ واحد ، وما كانت إلا من أخطاء زملائه في المكتب حمل عنهم تبعاتها حتى لا يتعرضوا لشر هو أقدر منهم على الخلاص منه .

وكان من اعتداده بنفسه وحفاظه على كرامته بحيث لا يسمح لرئيس مهما علا منصبه وارتفع مكانه أن يجحد منزلته أو ينال منه أئى نيل ؛ وكان يفرط في ذلك إفراطاً يدعو إلى الشك أحياناً في تواضع الرافعي وكرم خلقه وحسن تصرفه .

من ذلك أنه لما كان هذا المفتش يؤدي عمله في المحكمة — وكان عمله التحقيق مع الرافعي — كان الرافعي يلزم المفتش أحياناً أن يحضر هو إلى مكتب الرافعي في حجرته الخاصة بالموظفين ليسأله وهو جالس إلى مكتبه والمفتش على كرسيه إلى الطرف

لم يكن يحب إنسانة بعينها بناديهما باسمها ويمرفها بصفتها ، بل كانت محبوبته شيئاً في نفسه وصورة من صنع أجلاله ، يرى في كل وجه فنان لمحة من جلالها ، وفي كل طلمعة مشرقة بريقاً من تنمها ، وفي كل نظرة أو ابتسامة معنى من معاني الحبيبة الناعمة في لبه وفي أمانيه . . . فضى ينتقل من زهرة إلى زهرة ، عفيف لنظر والشفة واللسان ، حتى انتهى أمره إلى أمر . . .

لم ينس الرافعي إلى آخر يوم من حياته ما كان من شأنه وشأن قلبه في سدر حياته ، فكان دائم الحديث عن هذا المهد كلما رفقت به سائحة من سوانح الماضي تذكره ما كان من أمره ما آل إليه أمره .

ليس قصدي الآن أن أحدث عن الحب في تاريخ الرافعي ، فإن للحب تاريخه فصلاً ضافى الذبول كثير ، ولأن متعدد الصور له مكانة الفرد في هذا البحث في غير هذا الباب . لكنني أحدث عن الرافعي في بكرة شباب قالى مندوحة عن الإلزام بما كان يصطرح في نفس الرافعي في لكرة الشباب .

\*\*\*

عاش الرافعي لفنه ولنفسه من أول يوم ، فعااته الوظيفة عن يكون كما أراد أن يكون ؛ على أنه كان إلى اهتمامه بفنه وعنايته يكمله ، وعلى أنه كان لا يرضى أن تتبدل قوانين الوظيفة وتقيد به بلال النظام الحكومي — كان إلى ذلك دقيقاً في عمله الرسمي دقة لغ الغاية . وكانت إليه تقدير رسوم القضايا والعقود ونحوها يتصل بعمل المحكمة ؛ فكان كاتباً حاسباً لا يفوته شيء مما يستند به ، حتى آل أمره من بعد إلى أن يكون المرجع في هذا العمل كتاب المحكمة جميعاً ، يستفتونه فيما أشكل عليهم من الأمور في بدير الرسوم ؛ ثم لكثير من كتاب المحاكم في مختلف البلاد ، لوزارة الحفانية نفسها وهي المرجع الأخير ، تكتب إليه في أوية مكتبة من محكمة طنطا تسأله الرأى في حبة أو إشكال



شباب الرافعي

منذ كانت مديرية؛ وكان للصلة بين الرافعي ومحب باشا أثر كبير في أدبه سنتحدث عنه فيما بعد

\*\*\*

لم يكن للرافعي ميعاد محدد يذهب فيه إلى مكتبه أو ينادره، فأحياناً كان يذهب في التاسعة أو في العاشرة، أو فيما بين ذلك، فلا يجلس إلى مكتبه إلا ربنا يتم ما أمامه من عمل على الوجه الذي يرضيه، ثم يخرج فيدور على حاجته، فيجلس في هذا التجويز وقتاً ما، وعند هذا الصديق وقتاً آخر، ثم يعود إلى مكتبه قبيل ميعاد الانصراف لينظر فيما اجتمع عليه من العمل في غيبته، وقد لا يعود...

وكان هذا منه يغضب زملاءه في العمل، فكانوا ينفسون عليه ويأكلون لحمه، ويلغوه عنهم ما يتحدثون به فيهرز كتفيه ويسكت، ثم لا يتمتع ذلك من بعد أن يأخذ يدهم عند الأزمات؛ وكان كتبة المحامين وأصحاب المصالح في المحكمة

«سمو صبري مصطفى» فترتبه من «ترتبه من» «ترتبه من»  
«ترتبه من» «ترتبه من» «ترتبه من» «ترتبه من»  
خط الرافعي

يسمونه بذلك عمدة المحكمة...

وحدث مرة أن جاء إلى محكمة طنطا رئيس شديد الحول، فلما صعد إليه موظفو المحكمة للتهنئة، لم يجد بينهم الرافعي، فلما سأل عنه تحدث الموظفون في شأنه ما تحدثوا؛ فاستاء الرئيس وأرسل يدعوهم إليه فلم يجدهم الرسول في مكتبه، فغضب الرئيس ونارت ثأرته، وأمر باستجوابه عن الاستهانة بنظام المحكمة ومواعيد العمل الرسمي؛ وجاء الرافعي فبلغه ما كان، فبرز منكبته وجلس إلى مكتبه يمزح ويتحدث على عادته كأن لم يحدث شيء؛ ورفع الرئيس كتابه إلى وزارة الحفانية، يبلغها أن في محكمة طنطا كاتباً أطرش، لا يحسن التفاهم مع أصحاب المصالح على شدة اتصال عمله بمصالح الجمهور، وهو مع ذلك كثير التهاون بنظام المحكمة ومواعيد العمل ولا يخضع للرأي... وطلب الرئيس في آخر كتابه إقالة الرافعي من الخدمة...

وأرسلت وزارة الحفانية مفتشاً لتحقيق هذه الشكوى، وليرى رأيه فيما طلبته محكمة طنطا؛ وكان المفتش المنسوب لذلك

الثاني من المكتب. وكنت إحدى هذه المرات جالسا إلى جانب الرافعي - وكان يستدنييني ويشركني في عمله حين أذهب لزيارته في الديوان - فلما جاء المفتش هممت بالانصراف، فشد الرافعي ذراعي بعنف وهو يقول: «إجلس يا أخي...» ووجه إليه المفتش سؤالاً، فالتفت الرافعي إلى قائلاً: «فهمه من فضلك يا شيخ سعيد أحسن مش قادر أفهمه...» ثم التفت إلى المفتش قائلاً وهو يشير إلى: «حضرتة مدرس، يقدر يخليك تفهم...!»

لم يكن اعتداد الرافعي بنفسه يبلغ به إلى مثل هذا الشذوذ في كل أحواله، وإنما كان كذلك مع هذا المفتش بخاصته، لأنه كان يعتقد أنه يرى إلى إحراجة والتضييق عليه لقضايا مدنية كانت بين الرافعي وبين أسهار هذا المفتش ولم يقبل فيها الرافعي شفاعته.

وكان من تقاليد المحكمة كلاً قتل إليها قاض أو نائب جديد، أن يهرع إلى مكتبه موظفو المحكمة

يهتفون ويتهنئون له؛ فما أكثر ما كان يتخلف الرافعي عن وفد الموظفين، ويظل وحده في مكتبه؛ فإذا فرغ القاضي أو النائب من استقبالهم، مضى هو إلى مكتب الرافعي في حجرته، فينهض الرافعي لاستقباله، فيقفان لحظة يتبادلان الشكر والتهنئة على هذا الاتفاق الذي هيا لها هذا التعارف... ثم يذهب إليه الرافعي بعد ذلك في مكتبه يشكره ويكرر التهنئة.

حتى مدير المديرية - ومحكمة طنطا هي جزء من ديوان المديرية - لم تكن صلته بالرافعي صلة المدير الحاكم بموظف منير فكانت بينه وبين أكثرهم صلات من الود والصدقة فوق ما يعرف من الصلات بين الموظفين؛ ولكن منهم رجلاً واحداً كان أقرب قرابة إلى الرافعي من أهله ومن خاصته ومن... ومن تلامذته هو صاحب السعادة محمد محب باشا أقدر مدير عرفت مديرية الغربية

(١) آثرت في هذا الخبر أن أرويه كما جرى باللغة العامية، لينأى مناه إلى قارئة على وجهه. وكان الرافعي ينادى خاصته والفرين إليه: «يا شيخ فلان...» على اختلاف منازلهم وأعمالهم ولباسهم؛ ولم يكن كل أحد يتأهل عنده هذا اللقب.

للشعر سوق ومهرجان . وكان بين الرافعي وحفني من التقارب في الصفات ما يؤكد هذه الصلة ويوثق هذا الود ؛ فكلاهما شاعر ، وكلاهما من دعاة القديم ، وكلاهما أديب مرح يجيد الدعابة ويستجيد النكتة البكر ، وإن كانت فكاهة حفني أظهر وأبعت على الضحك وتكشف عن فراغ القلب ، وفكاهة الرافعي أعمق وأدل على قصد العبث والسخرية وامتناء النفس . ولعل روح الفكاهة في الرافعي كان لها شأنها فيما كان بينه وبين المرحوم حافظ إبراهيم بك من صلة الود والاخاء .

حدثني الأستاذ الأديب جورج إبراهيم - صديق الرافعي وصفيته منذ حدثته - قال : لقد كانت الصلة بين الرافعي وحفني أكثر مما يكون بين الأصدقاء ، وكانا يتراوآن كثيراً ، أو يجتمعان في قهوة (اللوfer) بميدان الساعة ، وكنت أغشى مجلسهما أحياناً . . . فكنت أرى حفني يتواضع للرافعي ويتصاغر في مجلسه ، على مقدار مايتشامخ الرافعي ويتكبر ويدعي الأستاذية ، حتى يرى له الرأي في القضايا التي لم يدرسها حفني بعد ، فلا يحكم فيها إلا بما حكم الرافعي !

\*\*\*

ظل الرافعي في وظيفته تلك ، موزع الجهد بين أعماله الرسمية وأعماله الأدبية وما تقتضيه شئون الأب وشئون رب الدار ، على المورد المحدود والبساط الممدود . . . وما زاد مرتب الرافعي الشاعر الكاتب الأديب الدائع الصيت في الشرق والغرب ، الموظف الصغير في محكمة طنطا الكلية الأهلية ، على بضعة وعشرين جنيهاً في الدرجة السادسة ، بعد خدمة ثمان وثلاثين سنة في وظائف الحكومة . . .

على أن الرافعي كان له مرتب آخر من عمله في المحكمة ، هو ثمن ما كان يبيع من كتبه للموظفين والمحامين وأصحاب القضايا الذين يقصدون إليه في مكتبته لعمل رسمي ؛ فإكان أحد منهم يستطيع أن يظفر برضا الرافعي فيقضى له حاجته ، حتى يبيعه كتاباً من كتبه . وكانت ضريبة فرضها الرافعي من طريق الحق الذي يدعيه كل شاعر على الناس !

ليت شعري أكان على الرافعي ملام أو معتية أن يفعل ذاك . . ؟  
لنا الله أيها الأدباء في هذه الأمة التي لا تحفظ الجليل !

وما بقية . ( طنطا ) محمد سعيد الصبراني

و الشاعر اللبق الطريف المرحوم حفني ناصف بك . ولم تكن ن الرافعي وحفني ناصف صلة ما إلى هذا الوقت ، إلا ذلك النسب بعيد الذي يجمع بينهما في أسرة أبوتون . . . وإلا تلك بكلمة القاسية التي كتبها الرافعي بأسلوبه اللاذع عن ( شعراء مصر ) سنة ١٩٠٥ ونشرها في مجلة الثريا وجعل فيها حفني صف ذئب الشعراء . . .

وجاء حفني ناصف إلى الرافعي فحيا وجلس ، وبسط أوراقه حقق . . . وقال الرافعي : قل لهم في الوزارة : إن كانت وظيفتي لنا للعمل ، فليؤخذوني بالتقصير والخطأ فيما يُسند إلي من عمل ؛ إن كانت الوظيفة : تعال في الساعة الثامنة ، واجلس على الكرسي كأنك مشدود إليه بجبل - فلا على إن تمردت على هذا التعبد . . . لهم في الوزارة : إنكم لا تملكون من الرافعي إلا هذين لصبعين ساعات من النهار . . . !

واستمع الأديب الشاعر إلى حجة الأديب الشاعر ، ثم طوى دراقه وحيا صاحبه ومضى ؛ فلما كان في خلوته ، كتب تقريره بوزارة الحفانية يقول :

إن الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه قيود . . . إن للرافعي حقاً على الأمة أن يعيش في أمن ودعة حرية . . . إن فيه قناعة ورضى ، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لم يسكن إليه . دعوه يعيش كما يشتهي أن يعيش ، وأتركوه يعمل ويفتن ويدع لهذه الأمة في آدابها ما يشاء أن يدع ، وإلا كفوا له العيش الرخي في غير هذا المكان . . . !

وبلغ التقرير وزارة الحفانية ، وانطوت القضية ، وصار بليداً من تقاليد المحكمة من بعد أن يبدو الرافعي وروح سلطان لأحد عليه ، وله الخبرة في أمره ؛ ولكنه مع ذلك لم يمل في واجبه قط ، ولم ينس يوماً واحداً أنه في موضعه ذاك حيث يرتبط به كثير من مصالح الجمهور .

قلت : إن الرافعي لم تكن بينه وبين حفني ناصف صلة ما . لكن حفني تولى القضاء بعد ذلك مرة أو مرتين في محكمة طنطا تقارباً وتوثق بينهما أواصر الود ؛ وكانت طنطا في ذلك الوقت طلبة من حلقات الشعر والأدب ؛ فلا يمضي أسبوع حتى يقدم إليها أديب أو شاعر لزيارة الشاعرين : حفني والرافعي ، فيقوم